

الاطار التاريخي لنكوب البنية الثقافية الحديثة ولصياغة السياسة الثقافية

د. برهان غليون

بقيت الفكرة القومية في الوطن العربي، منذ الحرب العالمية الثانية على الاقل ، المحرك الرئيسي للصراعات والمعارك التاريخية التي صنعت الوطن العربي الراهن . لكن. منذ الحرب العالمية الاولى ايضا ، ظهرت القضية القومية كقضية جوهرية خاصة بتحديد الذات وتعريف الشخصية القومية ، واصطبغت لذلك بصبغة ايديولوجية حتى عندما كانت فكرة قومية عربية . ولهذا ، كان الطابع الغالب على هذه الفكرة هو تعريف القومية بالاستناد الى الثقافة القديمة بالدرجة الاولى ، التي من المفروض انها تعكس خصائص عرقية او جنسية متميزة . هكذا نشأت فكرة القومية الفرعونية في مصر والسورية في سورية ولبنان ومناطق سورية الطبيعية الاخرى ، وهكذا ظهرت الفكرة القومية العربية الاولى لفترة ما بين الحربين ، واستمرت الى الوقت الذي بدأت فيه الحركة الاجتماعية والقوى الاجتماعية للطبقات الوسطى بالتمايز عن الفئات التقليدية ، التي قادت بالتعاون مع البريطانيين والقوى الدولية والمحلية الاخرى المعادية للدولة العثمانية كدولة ، حركة الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية .

كان مفهوم القومية يعني في كل مناطق الوطن العربي اظهار تمايز الهوية الوطنية عن العرق المسيطر وثقافته ، ان كان هذا العرق البشري هو العرق التركي في بلاد الشام ، او الفرنسي في المغرب العربي ، او البريطاني في مصر وبعض البلاد العربية الاخرى . ولم تكن حدود وآفاق هذه القومية بعيدة المدى ، لا على صعيد امكانات تطورها ونموها الجغرافي في المكان ، ولا على صعيد استمرارها وفتحها التاريخي في الزمان . فما ان استقلت البلدان العربية عن الدول التي كانت تتحكم في مصيرها حتى بدأت هذه الحركة القومية بالتفتت والتفكك ، ان كان ذلك في مستوى التحالف والتكتل الاجتماعي الذي كان يسندھا ويقود سيرھا ، او في مستوى الفكرة ذاتھا والنظرية التي كانت تبررھا وتقدم لها الحجج العقلية ، التي لا بد منها للحم قوى التحالف القومي الضيق الذي تمكسه ، وتوثيق عراه .

واول ضربة حقيقية لهذا المفهوم الاول للقومية ، وفي الواقع للحركة القومية الاولى هذه . هي في الحقيقة فرض انظمة الحماية والوصاية ، او الاستعمار الاوروبي المباشر، بعد طرد الاحتلال

العثماني . كان هذا في المشرق العربي بشكل خاص ، حيث سيتأخر قدوم التسلط الغربي عشرات السنين عما حدث في المغرب العربي ، وبشكل خاص في الجزائر ، ولهذا ، بينما ستخمد الفكرة القومية الثقافية بسرعة في بلدان المشرق ، خلال فترة ما بين الحربين ، نتيجة لفقدان الحركة اسس توازنها السياسي والاجتماعي وتفكك الحلف الذي استندت اليه ، ستستمر الفكرة القومية بمفهومها الثقافي ، اي كحركة تمايز عن الاجنبي وعن الآخر ، الى ما بعد الحرب العالمية الثانية في المغرب العربي ، وستحتفظ هذه الحركة هنا ، حتى الى ما بعد الاستقلال السياسي ، بخصائص مميزة اهمها التشديد على العنصر الثقافي الاسلامي كعامل تمايز قومي ، والتمسك بالعنصر الجغرافي الاقوامي والعنصر (الذي يجسد الشعور بالانتماء الى تاريخ ما قبل اسلامي ايضا ، بربري في الغالب) في الوقت ذاته . وسيؤدي تحليل الفكرة القومية الاولى ، التي يجب تسميتها في الحقيقة بالفكرة الوطنية لانها تمسك وتقوم على فكرة الانتماء الى وطن خاص قوما وثقافة ، الى ظهور الحركة والفكرة القومية العربية . وستتجاوز الفكرة القومية العربية المفهوم التقليدي للوطنية الذي ظل بدون شك مفهوما سلبيا ، أي مفهوما لا يقوم الا بنفي الآخر والتمايز عن الغرب ، او عن بلد عربي آخر ليؤسس لمفهوم جديد ذي طابع سياسي بالدرجة الاولى .

وبعكس المفهوم السابق ، لن يؤكد المفهوم العربي على التمايز عن الغرب الذي شغل مثقفي ما سمي بعصر النهضة جميعا ، ولا على تمايز العربي المغربي عن العربي المشرقي او السوري عن الفرعوني او اللبناني عن العراقي ... الخ . ولكنه سيقوم بالضبط على فكرة ايجابية هي انكار هذه التقسيمات الجغرافية الاقوامية والسياسية ، وبالتالي سيكون محور نشاطه هو بلورة حركة ومفهوم الامة الواحدة ، ومن ثم العمل من اجل الوحدة العربية اي الدولة العربية الواحدة ، بغض النظر عن التمايزات الاقليمية ذات الجذور الثقافية او العرقية او الاقوامية . وفي الوقت الذي لن يصبح فيه للاسلام هنا ، كعامل ثقافي رئيسي ، وزن كبير او على الاقل الوزن الذي كان له في المفهوم السابق المستند الى فكرة التمايز عن الغرب ، ستظهر للوجود مشكلة جديدة هي مشكلة الاقليات الاقوامية او العرقية . وبقدر ما كان المفهوم الاول يخرج المسيحيين من الامة ، جاء المفهوم الثاني ليخرج الاقليات الاخرى من بربر وافريقيين واكراد وارمن وشركس واقباط وغير ذلك من الاجناس التي يزخر بوجودها الوطن العربي كباقي الامم الاخرى . وحيث ستتمو وتتطور فكرة القومية الوطنية المحلية نسبيا في المغرب العربي ، ستشهد فكرة القومية العربية اعظم تطورها في المشرق العربي ، وبشكل خاص في بلاد الشام والعراق . اما في مصر فستبقى الحركة مترددة بين الخططين العربي والقومي المحلي ، وسيسمح هذا لمصر ان تكون القاعدة الكبرى ليس فقط لنهضة وانطلاق الحركة القومية العربية عندما كانت هذه الحركة في اوج نفجها ، ولكن ايضا المعقل الحصين للفكرة القومية المحلية عندما ستدهور اوضاع هذه الحركة العربية وتضطرم بتناقضاتها ذاتها . اما في العربية السعودية ، او بالاحرى في كل الجزيرة العربية ، فلن تطرح مسألة تحديد الهوية لا ثقافيا ولا سياسيا ، فلا الاسلام ولا العروبة يشعران هنا بخطر الاجنبي او بضرورة التمايز الثقافي او الاتحاد السياسي .

وكما أدى انهيار الحركة القومية الأولى والتكتل الاجتماعي الذي كان يسندها الى اندثار نهائي او مؤقت لافكار القومية المحلية (التي كانت تعكسها فكرة المملكة العربية الشرقية تحت سلطة الشريف حسين . ولا ترى في المغرب العربي ولا في مصر اجزاء من الامة العربية) والسورية واللبنانية والفرعونية وغيرها من التي نشأت في ركاب الاولى . وانهيار الحركة القومية والتحالف القومي اللذين كان شعارهما الوحدة العربية والامة الواحدة يفتح اليوم من جديد . وبشكل اكثر حدة من السابق ، المسألة القومية . ويظهر هذا بصورة خاصة اليوم في المشرق العربي . الذي ينعكس فيه انهيار هذه الحركة في صورة تفكك وانحلال عميقين لوحدة الجماعة المحلية ذاتها ، اي الاقليمية : تفكك للوحدة الثقافية الذي يظهر بميل متزايد للاندماج في الثقافة الغربية ، وفقدان الانتماء الى الجماعة بكل ما يمكن ان يخلقه ذلك من نفسية وسلوك ضد المجتمع وانحلال للوحدة الجماعية . التي تجعل من تشكيلات اقوامية ، طبقية ، مهنية او ثقافية متميزة واحيانا متناقضة المصالح والاهداف ، امة واحدة او شعبا واحدا وجماعة واحدة . أي اسس تكوين ارادة سياسية قومية واحدة لا تقوم المجتمعات . بفض النظر عن تاريخها وثقافتها وانتماءاتها ، الا بها .

منذ نهاية القرن التاسع عشر . لعبت الفكرة الوطنية . تلك التي كان رائدها رفاعة الطهطاوي في مصر . كما لعب الصحفيون ورجال الادب في لبنان وسورية ، دورا أساسيا في خلق اجماع شعبي وراء الطبقة الجديدة الناشئة التجارية والتكنوقراطية العربية . وكانت العقلانية التي نبش عنها في التاريخ الاسلامي . في الفلسفة الاسلامية كما في التقاليد الدينية ذاتها . المحور الاساسي للدعاء القومي . ذلك ان وجود هذه العقلانية وحده كان يبرر الحديث عن امة ووطن حقيقي يستحق ان يأخذ كفيره من الارطان الاوروبية (العلمانية) اسم الوطن الذي يشكل اكثر من طائفة دينية او تجمع متنافر لاقوام وطوائف واجناس متنوعة ومتنازعة . ولم يكن ذكرى الحرب الدينية التي اندلعت في سورية ولبنان بشكل خاص في الخمسينات من القرن التاسع عشر ، الا الدليل والتعبير المباشر والواضح عن التفكك الاول الذي اصاب الامة منذ بداية التدخل الاجنبي والتطور الرأسمالي لبعض البنيات الاجتماعية . والذي بلورته سياسة محمد علي وابراهيم باشا في مصر وسورية . فقد ادت هذه السياسة التي ارادت ان تكون سياسة حديثة وتحديثية بحق الى اعادة ترتيب للمواقع الطبقية والاجتماعية ، الطبقية والقبلية والطائفية . وساهمت بالضرورة وبقدر ما كانت تهدف الى تقليد الغرب والالحاق به والاهتداء بتجربته ، بأن دفعت الى مواقع الصدارة الاقليات التي كانت اقدر بحكم علاقتها الدينية التاريخية ، او بسبب النشاط الاسبق للمدارس التبشيرية او الممارسة المهنية القديمة ، على ان تؤمن الاتصال بالغرب وتضمن تطوير حركة التبادل المادي والفكري معه . كانت التجربة الاولى للتحديث تستند بقوة على هذا الحلف الجديد في السلطة ، ولهذا ظهرت ايضا في نظر الاغلبية الساحقة من السكان المسلمين ، الذين وجدوا اوضاعهم الاقتصادية في اطار تصنيع قائم على النهب المتعاضم من قبل الدولة لميزانيات الفلاحين والحرفيين الضئيلة ، كمحاولة لابعاد هذه الاغلبية عن السلطة وكنهايا حقيقي في موقعها الاجتماعي . وقد ارتبط التدهور المادي بالتدهور السياسي .

ولم يكن امام الفئة المسيطرة فعلا كي تخرج من المأزق الا ان تشجع الربط بين هذا التدهور وصعود سلطة الاقليات ، او على الاقل تحقق المساواة في الحقوق المدنية والسياسية بالمسلمين . وكان هذا موقف المشايخ المتعصبين والبروقراطيين الذين فقدوا سلطتهم او شعروا بتهديد هذه السلطة على رعاياهم ، وفي الاطار الذي كانوا يمارسونها به امام صعود الطبقة الجديدة البروقراطية والتجارية ، التي كانت تنشأ على الاغلب من اوساط الاقليات الدينية او العرقية ، التي كانت اما محرومة من الملكيات الكبرى الاقطاعية للارض ، او التي كانت تلجأ بسبب عزلتها عن النشاط الزراعي الاساسي الى الثقافة والتعليم ، لتصبح فيما بعد المنبع الاول للاطارات والعناصر المختلفة للكنوقراطية الجديدة . وفي الواقع ، لم تكن لهذه الفئة الاجتماعية اية تأثيرات حاسمة في توجيه النظام التحديثي الجديد ، الا بقدر ما كان التوجه الاساسي لهذا النظام ذاته هو الحيادية التكنوقراطية ، أي بقدر انعدام اية ايديولوجية ليبرالية او غيرها ، ترافق هذا التصنيع السريع وتسمح بقيام اجماع شعبي حوله يضمن نموه القبل ، ويررر في ذهن العامة من الفلاحين والعمال الجهد المضاعف الذي فرض عليهم واخرجهم من رقادهم العثماني القديم . سنتطرق المذابح الدينية ضد المسيحيين كعبر مباشر عن التحلل القومي الذي احدثته حركة تصنيع وحشية اي مجردة من كل تبرير مادي او معنوي . وستعيد هذه الحملة الصليبية بقوة سلطة المشايخ الذين كانوا يشعرون اكثر فاكثر انهم تحت رحمة كل حركة تحديثية جديدة . تتطلب بالضرورة وتجر خلفها امكانية ظهور فئات اجتماعية جديدة وتطلعها للسلطة السياسية والاقتصادية .

وستتبلور الدعوة الوطنية الجديدة لدى المثقفين العرب المتنورين والمتأثرين ايضا بالصورة الوضاعة ، التي تظهر فيها الامم الغربية موحدة ونشيطة وفعالة ، كرد فعل مباشر على هذه الحركة التي ابرزت التفكك العميق الذي سارت وتسير اليه الامة او بالاحرى الجماعة . وجوهر هذه الحركة وشعارها سيكون دون شك فصل الوطن عن الدين . ومن اجل الوصول الى ذلك كان لا بد من اظهار تمايز العرب او السوريين او المصريين ككل ، وبغض النظر عن اديانهم عن الغرب . وهذا التمايز لا يمكن ان يستند اذن الى مجرد تمايز بين الاديان المسيحية والاسلام . ولكنه تمايز ثقافي يتجاوز الاطار الديني ويرتبط اساسا بالقيم الفنية المشتركة الادبية واللغوية . ولهذا ستبدأ الحركة اساسا بدراسة ونشر التراث العربي الادبي والعلمي . وستؤكد على فكرة الثقافة المستقلة عن الدين ، والتي تكون جذر الدين مسيحيا كان ام اسلاميا . ومن هنا ، سيتطور فيما بعد فكرة اختلاف الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية ، اي ، كذلك ، تمايز المسيحية العربية عن المسيحية الغربية ، التي سيبالغ البعض من المسيحيين العرب الى حد وصفها بالمسيحية المحرفة ، مقابل المسيحية الشرقية التي بقيت محافظة نسبيا على اصولها التاريخية وظلت لهذا السبب ايضا قريبة من الاسلام .

ستتطور الحركة العقلانية العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر على اساس التخلص من التعصب الديني ، ليس فقط كقاعدة لتأسيس الوطنية والامة ولكن ، ايضا وبالتالي ، كجزء لا يتجزأ من الثقافة العربية (او السورية او المصرية الخ) ، وكقاعدة لتكوين الدولة وتطوير الاقتصاد . أي

باختصار كأساس لوحدة الجماعة . ولن تتطور العقلانية العربية بشكل ايجابي في الواقع ، أي لن تضيف افكارا جديدة وتفتح افاقا لم تكن معروفة من قبل في العقلانية الأوروبية التي ميزت هي ايضا . عصر الانوار (وبسبب هذا التشابه سميت الفترة العربية هذه بعصر النهضة تافؤلا) ، ولكنها ستتمو في اتجاه رفض التعصب الديني . وستتطور في اطار اظهار مساوئ التعصب الديني على صعيد التكوين القومي . وستظل لهذا السبب ايضا عقلانية خجولة وهشة مستعدة كل لحظة للسقوط في شرك طلب الشرعية من الدين ذاته ، او الردة السريعة الى موقف ديني ، او الشطط الى ما يتجاوز الميدان المحدود الذي تبقى فيه معقولة كي تتحول الى علموية ميكانيكية منحلة . هكذا مثلا سيرهن الدعاة على اولوية العقل ، على الايمان بالاستناد الى القرآن والسنة وبالعودة ، في فترة متأخرة نسبيا ، الى الخلفاء الراشدين لطلب عونهم في المهمة الصعبة . لكن هذا الموقف سيثبت بالعكس ان الاسلام والدين لا ينكران العقل وانما يضيفان اليه ابعادا لا يستطيع لمحدوديته ان يحيط بها ، مما يثبت ايضا اولوية وتفوق الدين والاسلام خاصة على العلم الذي ما هو الا جزء بسيط من المعرفة الممكنة ، وهو الجزء الاكثر فناء والاقبل اهمية وارتباطا بالحياة اليومية المباشرة للناس ، وبنظام القيم الذي ينظم علاقاتهم الواحد بالآخر . ولهذا لن يستطيع العقل احتلال ساحة كبيرة من الميدان السياسي طالما ان التاريخ الاسلامي يظهر ، بعكس ما يمكن ان « يدعي » اعداء الدين ، ان الاسلام وبالتالي الايمان لا يتعارضان مع الدعوة للتسامح او للديمقراطية والشورى ، ولا حتى مع فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية كما سيرز ذلك بقوة علي عبد الرزاق . لكن العقل الجديد سيقف اكثر من ذلك عاجزا كل العجز عن طرق باب الميدان الحقوقي الشديد الاهمية والحساسية معا ، والذي يشكل دون شك ميدان التأثير المباشر في التوازنات الاجتماعية القائمة والمراتب الفردية والطبقية والطائفية التي تقوم عليها مثل هذه التوازنات . سيبقى العقل العربي المحدث بعيدا كذلك كل البعد عن الميدان الاقتصادي الذي ظهر لهذا السبب في نظر الشعب ، وكانت لظهوره بهذه الصورة نتائج شديدة السوء ، كمجال الفعل اللامعقول والكوارث الاجتماعية التي ، بعكس الكوارث الطبيعية ، تثير ردود فعل مباشرة وعنيفة وعدوانية عندما لا تكون ثمارها الايجابية في تناول الناس مباشرة ، او عندما تنعكس تطبيقاتها على مستوى حياة الناس بشكل سلبي .

ولن تضيف الحركة العقلانية العربية الجديدة شيئا يذكر الا في ميدان الترجمة والنقل عن الماضي والغرب . وبشكل عرضي وبسبب ذلك ، في ميدان اللغة التي استدعت الترجمة تطويعها ، لكنها لهذا السبب ايضا ستعيق في المستقبل حركة تطويرها ، أي تفجير امكاناتها الداخلية وعبقريتها الخاصة التي لا يمكن ان تظهر وتتفتح الا في اطار الابداع المحلي والمحافظة على اسلوبيتها وخصايص تركيباتها التي تعبت بها الترجمة وتكررت توازنها لتطوعها حسب حاجات اللغة التي تنقل عنها . لذلك سيعقب الازدهار الشكلي للغة العربية في مطلع القرن العشرين ، والذي يعود في جوهره الى ادخال تركيبات جمالية جديدة منقولة عن اللغات الغربية الحديثة المتطورة والغنية بسبب تطور الحضارة ، ركود خطير وتفكك وعجز عن التقدم اكثر . وبعد ان نجح

ادخال اسماء ومصطلحات جديدة ميزت الانطلاقة الاولى ، من مثل اطلاق اسماء جديدة على الادوات الحديثة كطيارة وسيارة وغير ذلك ، ما زالت قضية نقل المصطلحات الغربية والعلمية الحديثة والمتجددة واللامتناهية في التكاثر تثير لدى باحثي اللغة العربية اليوم مشاكل ليس في الافق اي حل لها على الاطلاق . وبعد ان كان عجز اللغة يظهر بالدرجة الاولى في الميدان العلمي المحض ، اي ميدان العلوم الطبيعية والعلوم البحتة ، انتقل اليوم الى ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية التي طالما افتخر العقل العربي بتفوقه فيها واسبقته اليها ، بما في ذلك علم اللغة ذاته . ولا شك ان الانجاه الجديد الى حل مشكلات اللغة العربية بالطريقة ذاتها التي حلت بها نخبة النهضة المسألة ، اي بالاكتثار من القواميس والمعاجم ونقل الاصطلاحات ، او ، وهذا هو التيار والاحتمال الغالب ، بالتسبب وانعدام الجهد النظري الواعي والصارم والحازم ، هذا الاتجاه الجديد سيؤدي الى مآزق أشد خنقا واضيق اقفا في المستقبل ، وسيجعل من اللغة العربية احدى اللهجات المحكية والمتدهورة التي تعيش منفصلة على نفسها على هامش اللغات الكبرى للحضارة، علامة على الرثاثة القومية والبربرية التي لا تستمر الا لتظهر في عيوبها محاسن ضدها .

هذا التكوين الهش والمحدود للعقلانية العربية ، التي ستستمر الى ما بعد زوال الكتلة الاجتماعية والظرف التاريخي اللذين نشأت فيهما لتشكل اساس التوازن الفكري العربي في العقود القادمة التي ستركز نشاط المثقفين فيها ، بالدرجة الاولى ، على المقالة السياسية والاقتصادية، يظهر هشاشة الفكرة القومية الاولى التي استندت اليها وقامت في ظلها ، لها وبها . وحتى ان المثقفين انفسهم الذين كانوا يلعبون لها ، والتي ظلت في الاساس فكرتهم وميدانهم وانحصر انتشارها بينهم ، شعروا ، في اوج هيمنتهم النظرية ، بضعف الاسس التي يستندون اليها . وهذا ما يفسر حركة الاسلام التي مست بعض كبار دعايتها من المسيحيين العرب الذين ، في نضالهم لتكوين الوطن الحقيقي الذي كان يثير حماسهم ، وجدوا انفسهم مأخوذين بتيار الوطن الجارف اي الاسلام . وستستمر هذه الحركة حتى ايامنا الراهنة . لكن ، اذا لم يكن هناك من يفامر، كما كان يحدث في السابق في اثناء فترة الحماس الاول لانشاء وطن دهرى في التحول العلني الى الاسلام، فان التيار الغالب لدى مناضلي مسيحية الشرق اليوم هو التقريب بين المسيحية والاسلام باعتبارهما ، عكس ما هو سائد في الغرب ، نقطة التقاء عالم القيم الروحية والمبادئ والاخلاق الشرقية التي تميز مجموع الشرق ، بغض النظر عن اديانه ، عن الغرب الملحد والعلمي ، المادي والالي . ستستمر العقلانية العربية اذن كسلم عبور للمثقفين للانتقال الى الشرق ، وبشكل خاص ، لالتكباب على التاريخ والتراث واكتشاف الهوية القومية التي غالبا ما تنبلور في اكتشاف ارتباطها الوثيق بالاسلام . واذا كانت ارادة التحول او « التحقق كعربي » لا تنتهي دائما ، لا لدى المثقف العقلاني المسيحي ولا لدى المثقف العقلاني المسلم ، الى العودة الى الاسلام ، فانها تقود غالبا الى اكتشافه ، وفي حالات الحماس القومي الى التمسك به .

لكن هذا الحلف الفكري الجديد ظل في الحقيقة يبلور الايديولوجية القائدة لكل الحركة التي استمرت الى الحرب العالمية الثانية ، اي الى بداية الاستقلال السياسي . فعلى اساسه

تمت وحدة وتوازن العقل العربي النسبي خلال تلك الفترة ، ومن خلاله كان يجري كل التفكير ، أي حل المشكلات المطروحة على الوطن العربي في الواقع ، كما كان يجري حسم الصراعات التي كانت تتفجر في داخل المجتمع بين طبقاته وطوائفه المختلفة . أو بينه وبين الغرب والعالم الخارجي . وكان هو الذي يرسم بالتالي ، ضمن الحدود التي تقدمها اشكالياته النظرية ، إمكانات حلول المسائل السياسية والاقتصادية والثقافية التي تطرح كل يوم على الوطن العربي . هذه الحلول التي ما كان يمكن ان تظل لهذا السبب الاشكالية ومؤقتة وعابرة وهشة التوازن .

وهو حلف نظري لانه يقوم على تسوية بين نيابين اساسيين ، من ضمن التيارات التي كان يزخر بها الواقع انذاك والتي كانت تتعارض بشدة وتتصادم فيما بينها . فقد مثلت الاصلاحية . ضد التيار الاسلامي التقليدي ، خطوة ايجابية في اتجاه اثارة المشكلات ، التي لم يكن من السهل ايجاد حل سريع لها في نطاق الايدولوجية الاسلامية السائدة لدى المشايخ المعتمدين من قبل السلطات العثمانية والمرتبطين بالسلطة ارتباطا امثاليا لا جدوى منه . وباحيانها لفكرة الاسلام العقلاني والسلف الصالح ، مهدت الاصلاحية الدينية الطريق امام التحالف مع التيار الآخر ، الذي كان يقوده بشكل خاص المثقفون الاكثر تأثرا بالغرب من المسيحيين العرب والذي كان يدعو الى علمانية مطلقة ، من تطويرية داروينية الى اشتراكية سانسيمونية مبسطة . لكن هذا التحالف لم يكن ليتم اساسا الا بتجاوز هذا التيار الثاني (العلماني) لتمسكه بنتائج تحليلاته النظرية الالحادية في المسألة الاجتماعية والقانونية ، واعترافه اذن بمملكة الله في ميدان النقل الذي لا يمكن المساس ولا التضحية به . وهكذا ، مقابل التنازل عن الدينية الاسلامية كنزعة معادية للقومية ، جاء تنازل العلمانية العربية عن الكسموبوليتية العدمية كنزعة معادية للدين . ونشأ من هذا التنازل المتبادل حلف نظري جديد قاد النهضة دون ان يستطيع التحول الى تركيب نظري متسق ومنسجم ، وانما استمر يعكس في داخله نزعتين ، تظهران للوجود بقوة كلما ظهر ان الاسر الواقعية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي يستند اليها هذا الحلف مهددة بالتحلل : النزعة الدينية الاسلامية والمسيحية ، والنزعة العلمانية الملحدة الدهرية المحضة المعادية للدين والمتوازنة غالبا في معاداتها للدين ، بنزعة عدمية قومية وكسموبوليتية كونية . وظل الوطن العربي حتى يومنا هذا ، يتردد في الواقع بين هذين التيارين اللذين يمكنان حركة متناقضة في جوهرها : حركة التحديث ، التي بقدر ما توسع من امتداد الاسس المادية - الاجتماعية للدهرية والعدمية - القومية لدى نخبة اجتماعية متطورة ، تضيق الخناق على الاغلبية الشعبية وتدهور اوضاعها الثقافية والسياسية والاقتصادية . وهذا النمو التاريخي لهذه الحركة هو الذي سيؤدي فيما بعد الى انفجار وتفكك الحلف النظري ، الذي صاغه عصر النهضة من خلال الفرصة التي اعطاها لفريقي المثقفين : التقليدي الاسلامي ، والحديث العلماني ، ليتوحدا من اجل بناء مفهوم الوطن الجديد . وسينهار هذا الحلف عندما سيظهر ان هذا الوطن المتصور للجميع لم يكن في الحقيقة الا سجن استعباد الاغلبية الاجتماعية . ولم يستطع هذا الحلف النظري ان يعمق اشكاليته ويبدع تركيبا نظريا جديدا فذا لكي يقود به ، ومن خلال اجماع شعبي ، الجمهور الكبير من الفانين . لذلك بقي يعكس في اطار الحلف الاجتماعي العريض الذي قاد نحو تكوين الوطن

المستقل عن العثمانيين او عن الاستعمار الغربي فيما بعد ، مواقع النخبة المثقفة ذاتها . فبقدر ما كانت هذه النخبة قادرة على التأثير في الشعب بقيادته ايدولوجيا ، او على الاقل بتحييده وتجميد حركة معارضته ، كانت كذلك تضمن وضعية ممتازة في السلطة وفي الثروة . ولهذا ، لم تكن هذه النخبة تعكس في ايدولوجيتها وافكارها لا ايدولوجية الطبقة الجديدة الرأسمالية والتجارية ، التي ما كان من الممكن هنا ان يكون لها ايدولوجية . ولا الافكار الكبرى السائدة والمعبرة عن القوى الاجتماعية الكبيرة المغلوبة على أمرها . وانما كانت تخلق ايدولوجية خاصة مهنية . اساسها التوفيق بين كل ما هو قائم بقصد تبرير وجودها الذاتي وموقعها الاجتماعي ككلب حراسة للنظام الجديد . وهي لذلك ظلت غريبة على الفكرة الليبرالية البرجوازية . اساس الايدولوجية الرأسمالية في الواقع . كما ظلت غريبة على الفكرة الثورية واكتفت . حتى عندما لجأت الى استخدام الفكرة الاشتراكية ، بتحويل هذه الفكرة الى فكرة استبدادية وقمعية من الطراز الاول معادية للحرية وللعدالة الاجتماعية .

وقبل ان تستقر في اوطانها الجديدة ، التي خلقتها ضيقة وكثيثة كزنايات السجن على شاكلة تفكيرها ، كانت قد وضحت بالبذرة الحية الوحيدة التي سمحت لها بالنشوء والحياة . البذرة الثورية التي بدرها جمال الدين الافغاني وهو يناضل لا من اجل رفعة هذا العرق او ذلك . او مصالح هذه الفئة او تلك . وانما من اجل وقف الغزو الغربي للجماعة الاسلامية المهددة بالتفكك . لكن دعوة الافغاني جاءت متأخرة لسوء الحظ . وسيكتشف احفاده المباشرون سرية وبالحدس انسداد الطريق الذي شقه . وسيكتفون دون غضاضة مع الاوساخ الجديدة . اني سيقبلون الدور الذي اعطي لهم في تاهيل وتدجين الاغلبية الشعبية في البلاد الاسلامية والعربية . وتحضيرها للاضحيات المقبلة .

التفكك القومي والتفكك العقلي :

تتفق جميع الاراء والمواقف . لانها تجانب جميعها الحقيقة والواقع وتظهر . لا كاستقراء لهذا الواقع . ولكن كطقوس وتعاويد القصد منها هو بالضبط ابعاد هذا الواقع عن الذهن والتغطية عليه . وتبرز الازمة على اشدها عندما يرفض المنخرطون فيها او المساهمون في انجائها فهم دروس الماضي والاعتراف بالفشل . عندئذ تظهر الهزيمة نصرا والواقع خيالا والعقل خرافة والاستبداد حرية والفاقة وفرة والطوائف امة . ولكي نخرج من الحلقة المفرغة هذه يجب ان نرجع من النظرية الثعالبية الى العملية الثقافية . ومن الحكم الى السياسة . ومن الانتاج الى الاقتصاد . ومن الطبقة الى المجتمع . فالتوفيق بين النظريات والعلوم والاديان مهما كانت وكيفما كانت ، لا تخلق ثقافة ولا عقلا . وتقوية الحكومات والادارات وتنظيم الامور والملكيات لا تبدع سياسة ولا تخلق امة . مهما كانت فترة الدولة التي تكونها . ومهما كان استقرارها وهيبتها الداخلية والخارجية . وزيادة الانتاج والانتاجية لا تخلق اقتصادا قوميا مهما كان نوع وحجم هذه الزيادة .

ان جوهر هذا وذاك هو وجود الامة ، ليس بالضرورة بالمعنى الحديث للكلمة . ولكن بمعناها

المجرد العام ، اي وجود جماعة موحدة قادرة على التصرف في الساحة الدولية والتاريخية كإرادة واحدة بالرغم من التمايزات والتناقضات والاختلافات الداخلية التي لا تخلو منها جماعة ولا مجتمع ، والتي تظل ضرورية ايضا كي لا تتحول هذه الوحدة الى وحدة ميكانيكية ميتة ومنحطة وعاجزة عن النمو ، وانما تظهر معها اشكال الحياة الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية .

ولقد ظلت مسألة تكوين الامة الى فترة متأخرة ، لم تنته بعد تماما ، مركزة على فكرة الثقافة . وفي هذا المجال كان الشغل الشاغل للمفكرين العرب ان يظهروا التمايز الثقافي بين العرب وغير العرب ، اما بالعودة الى التراث العربي والاهتمام باحيائه ، او بتقديس التراث العربي ومديحه ، واظهار تفوق القيم والاخلاق العربية على القيم والاخلاق الغربية ، او باظهار فضل العرب على الغرب ، او بتمثيل كل عنصر ايجابي في الغرب من علوم واخلاق (بما في ذلك احيانا الدين المسيحي ذاته) واعتبارها من اصل عربي ، او احيانا وفي بعض الظروف ، بالعودة للوثنية العربية ، ونقد الاسلام ، واظهار التأثيرات الاجنبية فيه من فارسية وتركية وغيرها . ويمكن تلخيص هذه الاشكالية بثلاث نقاط : العرب افضل من الغرب ، والاسلام والمسيحية والاديان من اصل عربي والغرب هو الجحود ذاته ، والعقلانية والعلوم الغربية تجد اصولها في العقلانية والانتاج العلمي العربي القديم . وتستجيب هذه الاشكالية بشكل عام ، الى رغبة وحاجة النخبة المثقفة والمتفربة العربية الى التمايز ضمن نطاق الثقافة العصرية الجديدة عن النخبة المثقفة الغربية والشعور او ارضاء الشعور الذاتي ، واقناعه بأن الانتماء الجديد وتمثل الحضارة والثقافة الغربية لا علاقة له بالتخليد او بالتخلي عن الوطن والوطنية ، وانما هو استعادة للعروبة والتراث العربي الذي اهداه الغرب عنا . وهذا التضخيم للعنصر العربي في نشوء الغرب (يأخذ عادة اشكالا متطرفة لا معنى لها في نهاية التحليل ، مثل البحث الدقيق عن عدد الكلمات العربية في هذه اللغة الغربية او تلك . والعودة الى التراث لتبيان ان كل الاكتشافات العلمية الكبرى قد تمت على يد العرب ، وان انكر الغرب ذلك فلاسباب عنصرية وخوفه من العرب . ومن ذلك ايضا ، محاولة الكشف في القرآن ذاته عن هذه الاكتشافات العلمية) . هذا التضخيم له دور اساسي في بث ثقة النخبة العربية الجديدة بذاتها تجاه الغرب ، مما يجعل امكانية تمثيلها للثقافة الغربية مبررة . ويبدو عنها عقدة الشعور بالذنب او النقص . وفي اقناع الجمهور العربي العامي والمتمسك بالتقاليد بأن تقليد الغرب ، او تمثيل ثقافته ، لا يخرج عن اننا نسترد بضاعتنا التي سرقت منا . وهكذا يصبح التغريب ونشر العقلانية الغربية والثقافة الغربية استرجاعا محضا للهوية التي شوهتها وغطت عليها سنوات الخضوع الطويلة للسلطنات غير العربية ، وبشكل خاص السلطنة التركية . نحن العرب عقلانيون ، والذي منعنا من ان نحفظ بهذه العقلانية التي سرقتها منا الغرب فتقدم وتأخرنا ، هم المسلمون من غير العرب الالعقلانيون بطبيعتهم لانهم جميعا من اصل همجي وعرق رديء لا يصل الى مصاف العرب لا في المجد ولا في الذكاء ولا في العظمة . واذا كانت الحضارة الراهنة كاملة من اصل عربي ؛ فالعرب اولى بها ، لكن شرط استرجاعها هو التخلي عن القرون الماضية الانحطاطية : عن الوحدة الالقومية (السلطنة العثمانية) وعن الاسلام الاجنبي ، اما الاسلام العربي فهو الاسلام العقلاني . اسلام العلم والابداع . كانت الوظيفة

الحقيقية لهذه العملية الثقافية ، اي الاحياء العقلي للتراث . هي في الحقيقة لا تكوين امة عربية ولكن فك العرب عن الترك وغيرهم . ضمن عملية انهيار القوميات ما قبل الراسمالية . وربطهم بالحضارة الصاعدة اي بالغرب ، بالعلم وبالنور .

وستحقق عملية زرع هذه العقلانية من فوق ، لانها ليست منسجمة داخليا وغير منطقية . فهي تملك ايضا قسطها من الانسجام اذ ان كل حضارة جديدة تستند في بداية نهوضها الى مكتسبات الحضارات الاسبق قبل ان تتجاوزها وتتخطى عنها نهائيا والا لم يكن هناك اي معنى للتاريخ ؛ لكن لان النتيجة العملية لهذه النشاطات ولعقلانات الفكر العربي لم تكن الا تعميق الاندماج بالغرب والانصهار فيه . وبقدروا ، خلق هذا الاندماج نخبة مثقفة وطبقة عليا ذات بنية ذهنية غربية معزولة عن السكان الاصليين لا تجد تحققها الذاتي وراحتها ونفسها الا في الغرب ، وبالتعاون معه وغضب الواقع العربي المتخلف ليصبح بسرعة « غربيا » . ويرضي الصورة التي في ذهن النخبة عن الحضارة والتقدم . كما انه خلق اغلبية شعبية معادية للعقلانية ضمن معاداتها للغرب ومعادية للنخبة الحديثة بقدر معاداتها للتفريب . وهكذا اثارت سيرورة العقلنة والتحرر العقلي هنا ردة معاكسة لدى الجمهور ، دفعت الى التمسك الشديد بالتقاليد والى موقف لا معنى له عمليا ، مثل التمسك بالسلطنة العثمانية بالرغم من ان الحركة القومية التركية التي خلقت السلطنة قد بدأت حركة اضطهاد قومي حقيقي ضد العرب . وهكذا بدا تراجع الفكر الديني ، الذي اخذ يفقد طابعه التقليدي المتسامح كلما اقتربنا في الزمان . فما كان من الممكن كتابته . منذ نهاية القرن التاسع عشر . من نقد للخرافة او للجوانب اللاعقلانية في التراث الديني اصبح يثير الكثير من الحساسية في القرن العشرين ، وما كان من الممكن تمريره على الجمهور منذ عشر سنوات ، اصبح يثير اليوم رد فعل عنيفا جماعيا لا احد يعرف نتائجه . بل اصبح من المستحيل التفكير اليوم بطرح بعض المسائل الفكرية للنقاش في العلم العربي . ان حساسية الجمهور غدت مفرطة تجاه كل ما يتعلق بالتراث والدين ، واحدى انعكاسات هذه الحساسية كانت الحساسية العدوانية ضد النخبة المثقفة ، والثقافة . والعصرية . والحديث . وكل مظاهر العالم الحديث . ويدعم هذا الاتجاه موقفان : موقف النخبة الحديثة ذاتها ، التي بقدر مستوى تفريبها كانت تستقل ماديا وعقليا وعاطفيا عن الجمهور الكبير والواسع ، وكانت تتجه الى البحث الاناني والذاتي عن مصالحها وعدم احترام مصالح الاغلبية من السكان او اخذها بالاعتبار ، وكانت تجد تبرير ذلك . وما تزال ، في ايديولوجية عنصرية كامنة وضمنية تقوم على الشعور بالتفوق تجاه الاغلبية ، هذا التفوق الذي يبرر الاستغلال : احتكار الثقافة واحتكار السلطة واحتكار الدخل المادي . فعليها وحدها يتوقف مصير الامة ، وهي وحدها التي تقرر الحقوق والواجبات . وفي عصر التحرر هذا كم سمعنا من العبودية والافكار المسبقة ، من كلمات احتقار واستهانة بطبقات الشعب المختلفة من فلاحين او من رعايا المدن على السنة اولئك المنحدرين مباشرة من هذه الطبقات ذاتها . وكان يدعم هذا الموقف الشعور القاتل بالنقص لدى اغلبية الامة والطبقات الفقيرة : النقص نتيجة لفقدان القدرة على القراءة والكتابة ، وحل اسرار العصر الحديث . ونتيجة للاعتقاد بالعجز المطلق تجاه التفوق الساحق للغرب والآخر ، والامل بأن

هذا العجز يمكن تجاوزه اذا استطاع الابناء المتعلمون والنخبة الحديثة قراءة كتاب الغرب وحل لغزه وهتك حجابيه . وفي سبيل هذا الامل يقدم الآباء كل التضحيات المعنوية والمادية لئلا يكتشفوا فيما بعد ان الابن الذي راهنوا عليه ، والفئة المتحضرة الشبيهة بالمستعمر التي وضعوا آمالهم فيها ، والعلم العصري الذي لا بد ان يحرر الامة من السيطرة الاجنبية ويقود الى ان يشعر الاسلام انه حر في ارض الاسلام ، قد تحولت جميعها الى اعداء . الى حليف الغير والآخر . والى فئة اجتماعية ناقمة ومتسلطة جديدة اكثر وحشية من السلطة المستعمرة القديمة ، والى محاكمة للضمير ومنع لحرية العبادات .

اما الموقف الثاني الذي ادى كذلك الى هذا التطور فهو عملية استغلال هذه العملية الانطوائية على الذات ، وهذا الخوف من الحضارة والتحديث والتفريب من قبل القوى السياسية الحاكمة ، لتثبيت مواقعها في الحكم ضد الفئات الاخرى الطامحة الى الحلول محلها . وهكذا ، كل نخبة متأخرة بقدر ما تكون اكثر حداثة و متمثلة اكثر للثقافة الغربية ، وطامحة اكثر الى اجراء تجديدات جذرية تسمح لها بالاندماج في المجتمع الاعلى واعادة تكوين الواقع الاجتماعي حسب الصورة الحديثة التي اخذتها عن الحضارة الغربية ، والتي وصلت اليها الحضارة الغربية ذاتها ، هذه النخبة تعمل في صراعها ضد النخبة المحدثه التي سبقتها على دفع هذه الاخيرة الى التراجع والاستنجد بالتراث والتعلق به لكسب تأييد ودعم الشعب ضد القوى الجديدة الصاعدة .

وهكذا يظهر كل التاريخ العربي بحق كصراع بين الحداثة والمحافظة . وهو كذلك بقدر ما يعكس صراع الفئات المتعلمة والحديثة ، التكنوقراطية والبيروقراطية ، فيما بينها على السلطة . لكن هذا الصراع يغطي كذلك صراعا اعمق ، تشترك فيه في الطرف الاول كل عناصر النخبة الحديثة على مختلف مستويات تحديثها ، وفي الطرف الثاني الجمهور الذي ليس له في معركته الا المقاومة السلبية : التمسك بما تحاول النخبة بالذات ان تفصله عنه ، اي التراث الذي عرف من خلاله اباءه واجداده القريبين لا البعيدين ، اي اسس توازنه الراهن وتضامنه الذاتي ، كمجتمع تقليدي ضد المجتمع الحديث والنخبة التي لا تهدد الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ولكنها تهدد عناصر توازنه النفسي والاجتماعي والمادي اليومي الراهن : ثقته بنفسه وعلمه ومعارفه ، وتضامنه المحلية القبلية والعائلية والعشائرية ضد السلطة المجردة والمتفوقة والمطلقة والمسلحة

للدولة الحديثة ، التي لا يعرف كيف يمكن التصدي لقونها بشكل آخر . وروح وتقاليد التعاون المادي العائلي والقبلي او الطائفي امام اقتصاد حديث يحدد بقدر ما يفصل العالم البشري عن بعضه ويمزقه الى افراد . شروط الإحضار الدائم للفرد والسيطرة عليه واستغلاله الذي لن يكون منه مهرب الا بالموث . وبقدر وحتب المثار الرأسمالي المحلى المفروح كبديل عن الاقتصاد العائلي والعلاحي الصغير . فان رد الفعل يأخذ شكل مقاومة ايجابية اكبر : ليس التمسك فقط بالنسب الاقتصادية القديمة . ولكن اكثر من ذلك . الاستنجد بالجلادين والمسغولين القدماء . الذين تخفف علاقات التبعية الشخصية التي يبنون سلطتهم عليها من وطأة استغلالهم ومن الشعور بعزلتهم وغربتهم تجاه مسؤوليتهم ومستقليهم . والاستنجد بالاولياء والصالحين .

لقد اتخذت التحولات الماضية ، بما في ذلك تغيير البنى الاجتماعية او تكوين السلطات وتحكم النخبة ، شرعيتها كلها من الفكرة القومية : صيانة الهوية القومية ، ومقاومة العدوان المستمر للغرب ، بما في ذلك مشروعية فكرة الوحدة والحرية والاشتراكية . وباختصار اكثر . فان تحقيق هذا الامن القومي هو العامل الاساسي الذي برر امام الشعب كل العملية التحديثية . ودفعه الى التخلي في سبيل ذلك عن حريته وسلطانه واستقلاله النسبي لصالح الفئات الجديدة الصاعدة العصرية . ولكن مشروعية التحديث قائمة ايضا على احرار تقدم في دفع اذى الغرب . ولا بد ان تسقط هذه المشروعية اذا تحول التحديث الى تفريب واستلاب ، والتحاق متراد بالغرب . بل وحتى ، اليوم ، باسرائيل ذاتها التي بدأت تجد لها حلفاء ايدولوجيين يقللون من اخطارها . ويربطون بينها وبين التطور والحضارة ، وسينتھون الى التعامل معها كما انتهى اجدادهم الى التعامل مع البريطانيين والفرنسيين بعدما وقفوا ضدهم . وذلك تحت شعار الاخذ بالأسباب الحضارة والتكنولوجيا والعلم . وهؤلاء موجودون في صفوف المسلمين المتعصرين انفسهم وليسوا بالضرورة في صفوف هذه الاقلية او تلك .

واذا وصل التحديث الى هذه المرحلة من الانفتاح وتسليم الشعب للغرب ، اي للاستعمار وليس للحضارة ، فلن تفقد الحضارة (والحدانة) مشروعيتها كفكرة اجتماعية سياسية قائدة . حمراء او خضراء فقط ، ولكن سيفقد كل التقسيم الاجتماعي والتوازن الطبقي المستند اليها معناه ايضا : ستبدو التحالفات الاجتماعية التي كانت تضمن نفوذها وتفوقها باطلة ولا امل بقائها .

وهنا بالذات . اي في فشل واخلق المشروع العملي للعمل القومي لا في ضعف المنطق العلمي . يجب البحث عن أزمة الفكر العربي . وفي التبعية العملية المتزايدة للغرب لا في النقل عنه . يجب البحث عن انعدام الابداع . وفي تهميش الشعب وابعاده عن كل سلطة وثقافة وحياة لا في التمسك بالتقاليد . يجب البحث عن ضياع كل مثال وامل . وفي اليأس المتفاقم والجوع والالام والمرض والعوز لا في العقد النفسية التي وجود في ابرازها مثقفو بيروت اليوم : يجب البحث عن فقدان كل منطق وانتعاش منطق الخرافة والسحر .

كما انه ، في السياسة الثقافية القائمة على خلق نخبة متميزة : اسلامية او علمانية . حمراء او بيضاء او زهرية ، لا في الثقافة السياسية (اي الايدولوجية) . يجب البحث عن الفشل الفكري وازمة العقل العربي . فليست الايدولوجية القومية التي سيطرت على الفترة الماضية بكاملها وحكمت كل النظم النظرية العربي منذ القرن التاسع عشر ، هي التي تفسر هذه الازمة . ولكن الازمة العملية هي التي تبرز اليوم كيف كانت الايدولوجية القومية وبقيت غطاء مثاليا شريفا لاختفاء ممارسة لا قومية . اي جوهرها معاداة الشعب . والتحالف الضمني ثم العلني مع الاجنبي .